# الفصل الثالث عشر

## العائلة

قال بعضهم لأحد الحكماء الأقدمين: أحب أن أرى الدنيا، فقال له: اتبعني أرك إياها في طرفة عين.

ولا تسل عن دهشة الرجل عندما رأي الفيلسوف يسير به إلى منزل جاره، وكان ذا امرأة، وبنين، فأومأ إلى تلك العائلة المجتمعة وقال: هذه يا بني هي الدنيا.

أجل أن هذه العائلة التي تتألف في الغالب من الأب، والأم، ومن سبعة، أو ثمانية بنين وبنات لهي الدنيا بأجمالها تتمثل في تلك الأسرة من الشيخ الهرم إلي الطفل الرضيع، ومن الرئيس إلي المرؤوس، ومن القوي إلى الضعيف، ومن العالم إلى الجاهل، ومن المعلم المرشد إلى المتعلم المستفيد، ومن القائد المحنك إلى المسترشد الساذج. وبالإجمال أنك إذا نظرت إلى الأسرة بعين التبصر والإمعان تجلت لك وهي الصغيرة المؤلفة من عشرة أشخاص، أو أقل في مظهر العالَم الكبير الذي تروح فيه وتجيئ مئات الملايين من الناس، وإذا كانت العائلة هي الدنيا فما أسمى مقامها وأرفع شأنها!، بل ما أسمى وظيفة رئيس تلك العائلة، وأعظم عهدته! فهو في رئاسة العائلة كمالك في رئاسة الشعب عليه مثل واجباته، وله مثل حقوقه في السلطة والاحترام.

وكما أن صاحب السلطان في الشعب مسئول عن تقدم الشعب ورفاهته، كذلك صاحب الرئاسة في العائلة مسئول عن ما قبل كل فرد من أفرادها.

ولقد قلنا في مفتتح هذا الفصل أن العائلة هي الدنيا، وبالتالي الجنس البشري بإجماله. ومثل هذا القول يقودنا طبعا إلى الحكم بأن الجنس البشري كله عائلة واحدة. ولسنا نجد حاجة إلى الإسهاب في هذا الموضوع والإكثار من هذا القول، فلقد تقدمنا من قاله قبلنا بأفصح قول، وأجلي بيان، وليس من ينكر أن الحكماء الأولين، والعقلاء المعاصرين، بل كل فيلسوف وباحث في شئون الهيئة الاجتماعية، بل كل نبي مرسل قالوا كلهم: أن الجنس البشري علي اختلاف مذاهبه، وألوانه، وعاداته عائلة كبيرة واحدة، يجب علي أعضائها أن يحب بعضهم بعضا، وينصر القوي منهم الضعيف، ويأخذ بيده ويشد أزره.

وقد قال علماء أوروبا أن الجنس البشري كله عائلة كبيرة يمد فيها الكبار أيديهم إلى الصغار ليرفعوهم إليهم. ولا يخفى ما في هذا القول من السداد والحكمة السامية، ومن الأدلة علي أن العائلة الصغيرة المتآلفة من الأب، والابن، والأم، والابنة إنما هي تمثل الجنس البشري الذي هو العائلة الكبيرة.

وإذا كانت العائلة الصغيرة صورة العائلة الكبيرة ومثالها كانت العناية بها بمثابة العناية بالجنس البشري كله دون استثناء. وعلي هذا القياس فلا بدع في أن يكون الاهتمام بأمرها في كل زمان ومكان موضوع نظر الفلاسفة، ومرشدي الشعوب، وقادتهم، حتى أننا رأينا حكماء الشعوب الوثنية أنفسهم يأمرون بالنظر في أمر العائلة نظرا دقيقا يكفل بسعادتها؛ ليكون هناؤها وسيلة الكمال للجنس البشري كله.

ومما يدلك علي اهتمام الأقدمين أنفسهم بهذا الأمر الخطير قول كنفوشيوس فيلسوف الهند وكبير حكمائها أنه: "لا سبيل إلى سياسة العائلة، وتدبيرها، وإدارة شئونها إدارة حسنة إلا بإعطائها المثل الصالح"

وهذا القول موجه طبعا إلى رؤساء العائلات وأرباب الأسر، وبالتالي على

الوالدين الذين في أيديهم زمام الأمر، وعلي تدبيرهم يتوقف مستقبل العائلة، بل مستقبل الشعب، بل الجنس البشري برمته.

وكم رأينا في الشرق رجالا أخذوا علي أنفسهم أن يكونوا رؤساء عائلات وبالتالي قادة الهيئة الاجتماعية ومديري شئونها، فأفسدوا بسيرتهم ما كان من أمرها صالحا، أو زادوها بسلوكهم اعوجاجا علي اعوجاج بدلا من أن يكونوا نبراسا يهدي ضوء إلى الكمال، ومنارا يهتدي بنوره إلى الصراط المستقيم.

ولو علم أمثال هؤلاء مقدار ما يجنون علي الدنيا، ومقدار ما يساعدون علي شقاء العالم لكانوا هم قضاة أنفسهم دون أن يقضي عليهم أحد. ولكن الإنسان موضع الضعف، بل هو موضع جهل نفسه، ورحم الله القائل:

ومـــن جهلـــت نفســـه قـــدره رأى غـــيره منـــه مـــا لا يـــرى

فلذلك ترى عائلات برمتها تشقى بجهل رئيسها، وتسير في طرق التعاسة بغباوة قائدها. بل لذلك ترى الشعوب التي لا تعرف قدر العائلة تنحط وتزداد في كل يوم انحطاطا.

هذا ولكل عائلة كما هو معروف رئيسان طبيعيان: هما الأب والأم، فنأخذن قليلا في الكلام عليهما جاهدين بقدر الاستطاعة في بيان وظيفتيهما، والطرق التي ينبغي لهما أن يتخذاها لأداء هاتين الوظيفتين الساميتين بما يجب من الأمانة فنقول:

أن الله تعالي لما خلق الإنسان وكونه جعله شريكين هما الأب والأم، نفرض عليهما بهذه الشركة فرضا يجب القيام به قياما تاما وفاء لحق تلك الشركة، واعترافا بنعمة الله. والفرض الكبير الذي نشير إليه هو أن فيما فعل الخلق العظيم بتربية الأولاد الذي يرزقانه تربية تقوده إلى السعادة في هذه الحياة الدنيا.

والسعادة كما لا يخفى علي أحد لا تنال إلا باستيفاء شرطين طبيعيين: أولهما سلامة البدن، وثانيهما سلامة الذهن. فوظيفة الوالدين إذًا هي أن يساعدوا الطبيعة في عملها ليصبح الولد الصغير بعنايتهم رجلاً قويا في جسمه، وعقله، قادرا علي تحمل مشاق الحياة وحل مشاكلها.

ولقد تقدم لنا في باب التربية الصحية كلام على الوالدين الذين لا يعرفون شيئا من مبادئ هذه التربية الخطيرة، بل هم لا يعرفون كيف يحافظون علي صحتهم قبل العناية بسلامة أولادهم، فلسنا بعائدين إلى البحث في ذلك الموضوع، ولكننا نود أن نفسح هنا المجال لملاحظة ربما لم يذهب إيرادها في هذا المكان عبثًا: وهي أن الأب والأم لما اقتربا بعقد الزواج تعاهدا سواء بالتضمين، أو بالتصريح علي أن يقوما علي تربية من يولد لهما من الأولاد قياما حسنا كافلا بأن يبلغ بهم إلى تمام السعادة والهناء في الوجهين المادي والأدبي. ولا يمكنهما من الوفاء بما ضمناه إلا معرفتهما بأساليب التربية البدنية والذهنية معا، وهو أمر متيسر إلا للذين لا يعرفون أهمية الزواج، وسمو منزلته، وخطارة الواجبات العائلية والفروض الأبوية.

ونحن إذا أجملنا الكلام علي أهل الشرق يباح لنا القول أنه ليس بيننا من يحسن القيام بواجب التربية المقدسة قياما يكفل له الوفاء بما ضمنه يوم عقد زواجه.

ولسنا ندّعي أنه لا يوجد بين الوالدين والعائلات عندنا من يحسن الاقتداء بهم، ويجدر اتخاذهم مثلا في التربية العامة. علي أن أولئك هم النادرون عندنا، والنادر لا حكم له، وليس هو من موضع نظرنا في شيء، وإنما نحن نتكلم بالإجمال.

والعجيب من أمر العرب الأقدمين، والمحدثين السالفين والمعاصرين أنهم لم

يتركوا معنى إلا طرقوه، ولا موضوعا إلا أكثروا من الكلام عليه وتأليف المصنفات فيه، ما عاد أقرب الأمور إليهم، وألصق المواضيع بهم، ونريد بذلك التربية العامة بوجه الإجمال، والتربية العائلية بنوع التخصيص، كأن الفريقين جميعا كأنهم أعزابا، أو كأنهم يكتبون لتعليم الاعزاب فقط، مع افتراضهم بقاءهم أعزابا حياتهم بطولها، فأهملوا أمر تعليم الوالدين من آباء وأمهات فن تربية الأولاد إهمالا تاما، بحيث لا يرى في كتبهم شيء من هذا القبيل علي أهميته وشدة الحاجة إليه.

وأول ما يؤاخذ عليه الوالدون عندنا جهلهم أبسط قوانين التربية والمبادئ الصحية، فتراهم إذا شب لهم ولد علي فساد، أو علي مرض قالوا أنها مصيبة ابتلاهم بها الله. في حين أنهم إذا نظروا إلى ذلك من قريب أدركوا أن تلك المصيبة قد جلبوها هم علي أنفسهم، وذلك لجهلهم المبادئ الأولية المتعلقة بالصحة والذهنية، أو لإهمالهم إياها، وتقاعدهم عن القيام بها، فما جنى أحد عليهم، بل علي نفسها جنت براقش.

ولقد سبق لنا القول في الأسطر السابقة من هذا الفصل، بل في أماكن عديدة من هذا الكتاب: أن التربية تنقسم إلى قسمين: هما التربية البدنية، والتربية الذهنية. ومعلوم أن التربية البدنية مقدمة علي التربية الذهنية؛ لأنها ينبغي أن تبدأ مع الجنين وهو في بطن أمه، في حين أن التربية الذهنية لا سبيل إلى الأخذ فيها قبل أن يترعرع الولد في مهده.

وقولنا أن التربية البدنية ينبغي أن يُشرع فيها والولد جنين في بطن حامله ليس من قبيل الغلو والمبالغة، بل هو من قبيل الحقائق التي يجب أن ترسخ في عقول الوالدين، بل في عقول الأمهات بنوع خاص؛ لأن للمعيشة التي تجري عليها المرأة وهي حامل تأثيرا عظيما في بنية الطفل الذي يتغذي وهو في

أحشائها بالدم الذي تكتسبه، سواء بما تقتات به من المأكل والمشارب، أو بما تستنشقه من الهواء. وكثيرا ما يحدث أن الولد يكون ضئيلا، كثير الأمراض، فإذا بحثت عن السبب فيما يقاسيه من الضعف والعلة وجدت سبب ذلك كله ما كان عليه ابوه قبل حمل أمه به، أو ما كانت عليه أمه وهي حامل به. وليس في استطاعتنا أن نوضح هذا القول ببيان أجلى من هذا البيان، فيقرأ الوالدون فيما بين السطور، واللبيب تكفيه الإشارة.

ثم أن كثيرين من الأزواج يرزقون البنين والبنات، فيتركونهم للطبيعة تنمي أجسادهم، وتقوي أبدانهم علي غير عناية منهم ولا نظر. في حين أن الطفل في أول أيامه أحوج إلى المدارة والوقاية منه بعد ذلك؛ لأنه كضوء الشمعة في ضعفه، وكما أن الشمعة تطفئ ضوءها نسمة السحر، كذلك الطفل الصغير يؤثر فيه كل طارئ من العوارض بين جوية وغير جوية؛ ولذلك كان ينبغي للوالدين أن يحيطوا الطفل الصغير بسياج من الوقاية والتدابير الصحية يكون له بمثابة الزجاجة التي تحيط بنور المصباح، فتمنع عنه الهواء، وتبقيه متقدا مضيئا.

ذلك بعض ما يتعلق بالأمور الصحية في العائلة، وبقي من المسائل العائلية أمران خطيران ونريد بهما: التربية الذهنية، والتربية الأدبية في البيت.

أما التربية الذهنية فقد مر بشأنها في الفصول السابقة كلام مستفيض، بينما فيه الخطة التي يجب علي الوالدين والمربين أن يتبعوها مع الأولاد لترهيف أذهانهم، وتثقيف عقولهم، ومع ذلك فلسنا نرى بدًا من الوقوف هنا ولو قليلا عند هذا الموضوع الخطير؛ للإلمام علي إيجاز واختصار بما لم نشر إليه فيما تقدم لنأمن الكلام في هذا المعنى.

وأول ما نطلق في ميدانه عنان القلم أمر لاحظناه ونبهنا إليه فيما كنا ننشره عن موضوع التربية في جرائد البلاد ومجلاتها: وهو أن الأمهات والمربيات

بنوع خاص يربين الولد علي الجبن والخوف، فيكبر هيابا وجلا، خاضعا لسلطان الوساوس والتخيلات الوهمية، وذلك أنهن يبادرن لأقل حركة يأتي الولد بها إلى تخويفه بالغول، والضبع، وبكل "بعبع" له في هذا الكون وجود، أو لا وجود له. وحجتهن في ذلك أن الولد لا يسكت ولا يسكن إلا بالتخويف والإرهاب، وهي حجة واهية ودعوي ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو عملت الأم أو المربية أنها تزرع بذلك بذار الجبن والإحجام في قلب ولدها، وتعد له قيا يمنعه الإقدام في المستقبل، ويكون عاملا علي غل يديه عن السعي؛ إذ أنه يفقده الجرأة اللازمة للنجاح، لعدلت عن هذه الخطة المذمومة، وعملت علي بث عواطف الجرأة، والشجاعة، والأقدام، والحماسة في فؤاد هذا الطفل الرضيع الذي عهد به إلى عنايتها؛ لتجعل منه رجل العمل والإقدام.

وقد عرفنا شبانا ورجالا لا يجسرون علي التماس غرض، ولا يقدمون علي ارتياد مصلحة أو طلب حاجة، وهم مع ذلك علي علم ومعرفة، فتراهم إذا كانت لهم حاجة لا يخطون نحوها خطوة، بل ينتظرون أن تأتي هي من نفسها إليهم، أو أن يسعى فيها لهم نسيب، أو صديق.

بل شهدنا رجالا عديدين تسنح لهم الفرصة، وتعرض لهم الحاجة، فلا يعرفون أن يمدوا إليها يدا. يمنعهم الخجل، والجبن، والخوف عن اغتنامها، لا بل عندنا كثيرون تضيع حقوقهم المقدسة الثابتة لجبنهم عن المطالبة بها.

وإذا نظرنا ولو قليلا إلى الخطة التي تتبعها العائلات مع أولادها وهم في سن الصغر؛ إذ يؤثر أقل شيء في عقولهم تأثيرا يظهر فعله في كل أطوار حياتهم، حتى يدرجوا في الأكفان، ويغيبوا في ظلمات اللحد، نجد في جملة ما يطمسون به علي أذهانهم طبع الخرافات في عقولهم، والاعتقاد بالأوهام التي تحول دون التفقه، وإرهاف الأذهان، واستنارة العقول.

ولقد رأينا كثيرين استولت عليهم الخرافات والأوهام في صغرهم، فكبروا علي عقائد ما أنزل الله بها من سلطان ولا رضى بها عقل في زمن من الأزمان.

وكثيرا ما تكون الخرافات سببا في خراب البيوت العامرة؛ إذ تسهل باستيلائها علي العقول سبيل التدجيل والمخرقة، فيسير أصحابها بأولئك الذين خيمت الخرافات علي عقولهم إلى هاوية الخراب ولجة الفقر. ولولا تهامل الوالدين وإهمالهم هذا الأمر الخطير منذ صغر أولادهم لما وجد المخرقون، والمشعوذون، والدجالون سبيلا إلى الاحتيال وخراب بيوت العباد. ولم يكن يوجد من يبيع بيته. ورياش منزله. وحلي أمه وامرأته لينفق ثمن ذلك كله في التفتيش عن كنز. والتنقيب عن لقيه، ولكن سوء طالع الشرق قضى عليه أن يكون مهد الخرافات، ومنبع الأوهام والأضاليل، وأن لا يقف هذا الداء الوبيل عند حد، بل أن يتفشي في كل أحوالنا متنقلا من الدين، إلى العلم، إلى العادة، إلى ما لا نهاية له من أمورنا وشئوننا.

ومن يصدق أنه لا يزال في بلادنا من يعتقد "بولاية" المجنون، ومن ينذر النذور لشجرة ويوقد عندها المصباح علي اعتقاد أن روح ولي من الأولياء تأوى إليها.

فقد حدث لنا مرة أننا ذهبنا في الرمل إلى منزل في محطة صفر، وكانت علي مدخل المكان شجرة قديمة جرداء، وقد اجتمع حولها ثلاث نساء من المصريات وهن جالسات جلسة الملتمس المستعطي. فنظرنا إلى الشجرة، فإذا الشرائط الحمراء، والخضراء، والصفراء وسواها من كل لون مدلاه منها كألوان قوس السحاب، وعند جذع الشجرة مصباحان أو ثلاثة مصابيح موقدة، فحرنا في الأمر، ولما سألنا لم ينقص العلم بسبب تلك الحالة من حيرتنا، ولم يقلل من دهشتنا؛ إذ قيل لنا أن تلك الشجرة "ولي"، أو هي مأوي لروح ولي، وأن

الرجال والنساء يقدمون بالهدايا والنذور لذلك الولي فتأمل.

ونحن لا نتعمد الدلالة هنا علي كل خرافة من هذا القبيل، فلذلك لسنا نزيد علي ما ذكرناه، ولو شئنا إيراد كل ما سمعنا به أو شهدناه بأعيننا وتحققنا بأنفسنا لضاق بنا مجال هذا الكتاب برمته. وإنما أشرنا إلى ما أشرنا إليه عرضا ليقاس علي ما ذكر ما لم يذكر.

والغريب من أمر الخرافات في الشرق سواء ما كان منها متعلقا بالعقائد الدينية مما هو منافٍ للدين منافاة تامة، أو ما كان منها عائدا إلى العلم مما يخالف الأصول العلمية المقررة، وينقضها من أساسها، بحيث يكون معها علي طرفي نقيض أنك لا تجد من كتابنا من يعني بإظهار فسادها، ويجري قلمه في بيان مضارها، وتعليم العامة نبذها وطرحها ظهريا.

بل أنك قلما تجد في الخاصة أنفسهم من يضحك مستهزئا من خرافة تذكر لديه، أو وهم يُعمل به أمامه. ولعمر الحق أننا لا ندري مثلا لماذا لا تُنَبه العامة عندنا إلى أن الحوت لا يأكل القمر؟، وأن القمر عند ما يخسف تكون الأرض قد توسطت بينه وبين الشمس فمنعت نورها أن يصل إليه؛ إذ أن القمر يستمد نوره من الشمس، فمتى حجبته الأرض عنها أظلم، فلا دخل إذًا للحوت في المسألة، ولا القرع علي الصفائح يجدي.

علي أننا بدلًا من ذلك ترانا نشارك العامة بخرافاتها وأوهامها، حتى أنك لتجد مجالس بعض الخواص، والكبراء، والأغنياء مجمعا لمرض الخرافات، ومجالا لبيان الأضاليل والأوهام. فإذا حضرها الولد، وابن العامة استولت الخرافات علي عقله؛ لأن الولد الصغير يتعلم ممن هو أكبر منه، وابن العامة والسوقة يتشبه ويقتدي في كل شيء بمن هم أرقى منه، حتى أنه ليفكر مثلهم، ويعتقد اعتقادهم، وكيف لا يحزن كل من يحب وطنه وشعبه حبا أكيدا ويغار علي هذا

الشرق غيرة حقيقية عندما يري الأوروبيين مشتغلين في ساعات الخسوف والكسوف برصد الأفلاك لاكتشاف المُخبّأت ويرى صغارهم (حتى أولاد العامة والسوقة منهم) يرصدون علي سبيل التقليد، ناظرين إلى القمر المخسوف من وراء زجاجة سودوها بالدخان، ثم ينظر إلى الأحياء الوطنية في الشرق فلا يرى غير حملة الصفائح، ولا يسمع غير قرعها، والأولاد يقفزون ويصيحون كأنما قد قامت القيامة كل ذلك "إرهابا للحوت الذي ابتلع القمر".

بل كيف نرجو أن تصلح أمورنا، وتزول الأوهام والخزعبلات المتسلطة علي عقولنا وقلوبنا إذا كنا نرى الكتبة، وطلبة العلم الشريف عندنا لا يأنفون من نقل الخرافات في كتبهم دون دحضها وتفنيدها، أو علي الأقل الدلالة علي أنها خرافة تنافي العلم الحقيقي، والمعارف العصرية.

أو لم نقرأ في كتاب لأحد شيوخ العلم في القِطر: وهو شاب من الشعراء الأدباء الأذكياء. أن في غياب الشمس أقوالا جمة: منها أنها تتوارى في البحار، ومنها أنها تدخل جوف حوت فيبتلعها ويتم في الليل هضمها فتبرز في الصباح؟

فإذا كان الشيخ الشاعر الأديب الذي قرأ العلم في الأزهر الشريف ينقل مثل هذه الروايات دون الإشارة إلى فسادها، فهل يلام العامي إذا صدقها، واعتقد بها، وهي مروية له عن لسان شيخ من طلبة العلم الذين يعتقد بأنهم فوقه بدرجات، وأنهم أبعد منه معرفة، وأصح اعتقادا وعلما، بل أنهم معصومون عن الخطأ في مثل هذه العلوم؟

وأنها لجريمة أن يكون رؤساء العائلة وقادتها أول حائل دون تربية الذهن، وشحذه، وإرهافه، وذلك بطبعهم العقائد الخرافية، والخزعبلات الوهمية في عقول الأولاد.

وقد قرأنا في بعض كتب التربية لأحد مشاهير كُتّاب فرنسا كلاما عربه بعضهم بما خلاصته: "أن تربية الذهن إنما هي إعانة الطبيعة علي إرهافه وشحذه، وإن ذلك لا يكون كيفما جرى واتفق، بل بمقتضى نواميس طبيعية لا يجوز للأبوين أن يجهلا مبادئها، ولا أن يحيدا عن طريقها. وكل والد يجهلها، وكل أم تحيد عن طريقها لا يصلحان لإعانة الطبيعة علي إتمام فعلها، بل هما عدوان لها يعملان علي إحباط عملها. والولد أول ما يتخرج ذهنه يتخرج بما يعيه شيئا فشيئا من تلقاء نفسه، وتنتبه له فطنته عفوا من الخواطر البسيطة، والمعاني المفردة، حتى إذا اجتمعت له طائفة متجانسة منها في شيء بعينه تذرع بها إلى معرفة ذلك الشيء بمقدار ما يستطيع. فمن واجبات أبويه إذًا أن يسهلا لذهنه تحصيل تلك الخواطر والمعاني، وذلك بأن يعدا له يوما فيوما من الأشياء والأمور التي تقع تحت حواسه ما تتنبه له فطنته، ويفهم بعض أمره بسهوله، حتى إذا أدرك شيئا من كنهه بالخبرة، والمعاينة، والملابسة بنفسه انتقش معناه في لوح ذهنه"

ومن ذلك يتحصل أن الأمور التي تعرض للولد في صغره، والعبارات التي تطرق أذنيه في نعومه أظفاره تنقش علي لوح صدره. وقد قيل العلم في الصغر كالنقش في الحجر، فلذلك يجب أن يعني الوالدون، والمربون بإنارة عقل الولد، وانتزاع الخرافات والأوهام من ضميره. ولسنا نطيل الكلام فوق ما أطلناه في هذا الموضوع، وإن كان هو في حد نفسه يحتمل التطويل، علي أننا مع التماسنا طريق الإيجاز، وشدة رغبتنا في الاقتضاب، لا نرى بدًا من التنبيه قبل الخروج من هذا الموضوع إلى مسألة قليلة الأهمية في ظاهرها، بعيدة التأثير في حقيقة أمرها، وهي مسألة مراضع المربيات، والخدم في العائلات.

وغني عن البيان أن المربين إنما يعطون مما عندهم، ويبثون في الأولاد

أخلاقهم، وآدابهم، وعاداتهم، وتصوراتهم، ويعلمونهم مبادئهم وعقائدهم، وبالتالي إنهم ينفخون فيهم من أرواحهم، ولو استطاعوا لأعادوا خلقتهم وولادتهم ليجدوهم علي صدورهم وأمثلتهم. فمن الخرق في الرأي أن يترك الاهتمام بأمر المربي والمربية، وتهمل العناية بحسن اختيارهما، والقيام علي مراقبتهما، والنظر في أمر سلوكهما.

وكثيرًا ما كانت هذه المسألة سببا في ضياع تربية الأولاد لقيامها منذ البدء علي غير أساس متين. وعندنا أنه خير للأب أن يقوم هو بنفسه، وأفضل للأم أن تعمل هي بيدها علي تربية الابن والابنة اللذين رزقهما الله تعالى من أن يوكلا هذا الأمر الخطير إلى من لا يعرف أن يقوم به، أو إلى من يستصغر مهمته فيه، ويلطخ ذمته بوصمة إهماله وعار التقصير في شأنه.

ذلك فيما يختص بالمربين والمربيات الذين سيأتي الكلام عنهم بالتفصيل في موضعه من هذا الكتاب. أما المراضع والخدم فليس أمرهم بأقل أهمية من أولئك، وكثيرا ما يحدث أن يكبر الطفل ضئيلا نحيف البنية كثير العلل بسبب مرضعة، وأن يشب دنِيء النفس غير أبيهًا، طويل اليد، بذيء اللسان، قليل المحاسبة لنفسه، والاحترام لوالديه، والوقار لمن هو أكبر منه. شرها، نهما، كارها للنظافة والترتيب إلى غير ذلك من المعايب والنقائض، ويكون السبب في ذلك كله خادم البيت، أو خادمته اللذين لا يعرفان لجهلهما مقدار ما يؤثر المثل في الأطفال، ومقدار ما تفعل الكلمة الواحدة التي يلفظ بها أمام الأولاد.

ولذلك قلنا في أحد الفصول التقدمة أنه ينبغي التأمل في كل كلمة تقال أمام الأولاد، والنظر في عواقب كل لفظة يتلفظ بها أمامهم، ولاسيما في مجامع العائلة، ومجالس الأسرة، حيث تكون كلمة الأب قاعدة يجري عليها بلا شواذ، وإشارة الأم خطة تتبع بلا استثناء، وفعلة الكبير مثلا للصغير، يتبعه ويجري عليه

بلا مراء، ولا جدال.

ولقد أطللنا في هذا الموضوع حتى أننا لنخشي ملل القارئ لولا ما نعلمه من شرف القصد الذي نقصده، وسمو الغاية والتي نرمي إليه: وهي تربية هذا الولد الصغير حتى يصبح رجلا جامعا للكمالات التي تؤهله للسعادة والهناء، ولما كانت السعادة لا تكون كاملة شاملة إلا متى قام المرء بواجبه قياما تاما، ووفى الغرض الذي يطلب منه من كل وجوهه، كان أول ما ينبغي للعائلة أن تعرفه: هو أن سعادة الولد موقوفة علي التربية التي تمنحه إياها ليقوم فيما بعد بما يفرض علي الرجال ويكون سعيدًا.

وأي أب، وأم لا يريدان أن يبلغ أولادهما أوج السعادة، وأعلي قمم الهناء؟ ولكن الوالدين لسوء الحظ يريدون السعادة لأولادهم، ولكنهم لا يعرفون كيف يعدون لهم أسبابها.

ولذلك كان يجب علي رؤساء العائلة أن يعلموا أن السهر علي تربية أولادهم عهد اتخذوه علي أنفسهم يوم شرعوا بإنشاء هذه العائلة التي هم رؤساؤها. وأن أولادهم إذا وجدوا التعاسة بدلا من السعادة التي إنما خلقوا لأجلها فالذنب في ذلك عليهم دون سواهم لأنهم لم يحسنوا القيام بما يطلب منهم.

أما الوجه الأدبي في الكلام علي العائلة فقد رأينا أن نفرد له فصلا برمته؛ لنتمكن من أن نفي هذا الموضوع الخطير حقه من البحث، والتنقيب، والدلالة علي مواضع الخلل، والتماس وجوه الإصلاح، والله الهادي إلى سواء السبيل.